" القصد فى المشى "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " القصد في المشى " يقول الله -عز وجل-:" ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[سورة لقمان:١٨:١٩]. والمعنى: "لا تمل بوجهك عنهم تكبراً عليهم ، ويقول القرطبى: " لا تمل خدك للناس كبراً عليهم ، واعجاباً ، وتحقيراً لهم . وهوقول " ابن عباس " -رضى الله عنهما - ولا تمش متبختراً ، متكبراً لأن الله يكره المتكبر الذى يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ، ولما نهاه عن الخلق الذميمة ، أمره بالخلق الكريمة فقال له تعالى : " توسط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء واخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يليق بعاقل ، إن أوحش الأصوات صوت الحمير ، فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم ، وأتى بالمنكر القبيح .

يقول الحسن : " كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لوكان خيراً لفضلتهم به الحمير ، ويقول " قتادة "-رضى الله عنه -أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق . ويقول " المراغى في تفسيره : " ولا تعرض بوجهك عمن تكلمه تكبراً واحتقاراً له ، بل أقبل عليه بوجهك كله متهللاً ، مستبشراً من غير كيد ولا عتو. عن أنس بن مالك أن رسول الله -ﷺ- قال: " لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث " . ولا تمش في الأرض مختالا متبختراً لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون في الأرض ويظلمون الناس ، بل إمشى هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع .

عن " غضيف بن الحارس " قال : " أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي ! ألم تعلم أني بيت الوحدة ! ألم تعلم أني بيت الظلمة ! ألم تعلم أني بيت الحق ! يا ابن آدم غرك بي ! لقد كنت تمشي حولي فدادا قال ابن عائذ قلت لغضيف : ما الفداد يا أبا أسماء ؟ قال : كبعض مشيتك يا ابن أخي أحيانا قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال خيلاء وقال : -ﷺ-:" من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة " .

والله لا يحب المختال المعجب بنفسه ، الفخور على غيره ، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾[سورة الإسراء:٣٧].

وامشى هونا بلا تصنع ، ولا مراءات للخلق وذلك بإظهار التواضع ، وعمد الكبرياء ، روى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً... فقالت: ما لهذا؟ .

فقيل : إنه من القراء .

فقالت : كان عمر – رضي الله تعالى عنه – سيد القراء ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع . فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت وهو الذي يخفي صوته ويقل حركاته مما يتزيا بزي العباد كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات ليوهم أنه ضعف من كثرة العبادة . ورأى " عمر بن الخطاب " – رضى الله عنه – رجلاً متماوتاً ، فقال له : لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله " . ورأى رجلا مطأطأ رأسه فقال له : " إرفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض " .

وإن أبشع الأصوات وأقبحها رفعها فوق الحاجة بلا داع ، وفي ذلك تهجين لرفع الصوت ، وأن الذى يرفع صوته بلا داع فكصوت الحمار تنفيرا من ذلك العقل وتقبيحاً ، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض صوتا كان أذل ، يقول شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النعم

ويخطو على الأين خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عميم

والرواء هو المنظر الحسن ، والنعم هى الابل ، والأين الاحياء ، والخلق العمم أى التام، والظليم هو ذكر النعام .

ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " لا تتكلم وأنت مُعْرِض ، يعني بذلك التشديق في الكلام ، وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر . ويقول عمرو بن حيي التغلبي :

وقال أبوطالب في شعره :

وكنا قديما لا نقر ظلامة إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾[سورة لقمان: ١٨] . يعنى : مختال معجب في نفسه ، فخور على غيره. وقد ذكر الكبر عن رسول الله- ﷺ -:" ذكر الكبر عند رسول الله- ﷺ – فشدد فيه ، فقال : " إن الله لا يحب كل مختال فخور".

فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شِراك نعلي، وعِلاقة سَوْطي،

فقال: " ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تَسْفه الحق وتَغْمِط الناس " .

وعن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : " إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا ، وإذا سمعتم صياح الديك فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكا " . وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: " طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجرون من كل فتنة غبراء مشينة " . وعن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر - رضي الله عنه - ، أنه دخل المسجد فإذا هو" بمعاذ بن جبل " يبكي عند قبر رسول الله - ﷺ - ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله - ﷺ -، سمعته يقول: " إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة " .

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي- ﷺ - قال : " رُبَّ ذي طمرين لا يُؤبَه له، لوأقسم على الله لأبره، لوقال: اللَّهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً" .

قال عبد الله بن المبارك:-

ألا رُبّ ذي طمْرَين في مَنزل غَـدًا ... زرَابيـــه مَبْثُوثـــةً ونَمَارقُـــه

قَد اطَّرَدَتْ أنهـاره حَوْل قَـصْره ... وَأشرَقَ والتفَّـتْ عَلَيـه حَدَائقُـه

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم التى تأخذ بيد المسلم إلى مواطن النجاه وسبل الرشاد(١) .

1- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤٤٦ – ٤٤٨ .
- تفسير القرطبى جـ ١٤ ، ص ٧٠ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٤٩٣.
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ٨٥ وما بعدها .